

تعقيب على مقال (الشيخ عدي و الملك طاووس)

حتى لا يسيطر الأموات على الأحياء

محسن سيّدا

” لقد احتفظ اليهود ببقائهم إلى مدى كبير بسبب كراهية المسيحيين لهم و دفعهم الاضطهاد إلى الوحدة و التماسك لاستمرار بقاء جنسهم و كان من الممكن لولا هذا الاضطهاد دمجهم و صهرهم مع الشعوب الأوروبية عن طريق الزواج و غيره “
سبينوز

نشرت مجلة " أوراق كردية " (العدد 1) مقالاً للكاتب نزار آغري تحت عنوان " الشيخ عدي و الملك طاووس " يعالج فيه الدين اليزيدي من وجهة نظر مغايرة لما ألفناه و اعتدناه من دراسات و أبحاث تصدر بين الحين و الآخر عن اليزيدية من لدن المثقفين الكرد.

يبدو أن الكاتب يملك من الجرأة ما يكفي لخوض موضوع حساس و شائك كالمعتقد اليزيدي , حيث يتداخل السياسي بما هو ديني و تاريخي وهو غير مكترث بالانتقادات التي قد توجه إليه و ربما يتقصد كتابة ما يثير الجدل لكسر الجمود في المشهد الثقافي الكردي.

تعد اليزيدية من أكثر الطوائف الكردية التي استأثرت باهتمام الدارسين و الباحثين منذ بدايات القرن المنصرم و حتى يومنا هذا , و قد تباينت دوافع البحث و التعقيب في تاريخ اليزيدية متأرجحة بين المعرفي الصرف من جهة و توظيف هذا المعتقد لأغراض سياسية و تبشيرية من جهة أخرى .

ما أوده هنا هو مناقشة بعض الآراء الواردة في مقال الكاتب على ضوء نصوص تاريخية متوفرة بين أيدينا .
عدي بن مسافر مرة أخرى :

تحول عدي بن مسافر إلى نبي للطائفة اليزيدية و ربما إله لها , فمن هو عدي بن مسافر ؟ وكيف أطرت النصوص التاريخية هذه الشخصية ؟

ف (الشيخ عدي قدس الله روحه كان من أفاضل عباد الله الصالحين و أكابر المشائخ المتبعين , وله من الأحوال الزكية و المناقب العلية ما يعرفه أهل المعرفة بذلك . وله في الأمة صيت مشهور ولسان صدق مذكور و عقيدته المحفوظة عنه لم يخرج فيها عن عقيدة من تقدمه من المشائخ الذين سلك سبيلهم) (1) و (تنسب إليه الطائفة العدوية , سار ذكره في الآفاق , وتبعه خلق كثير , و جاوز حسن اعتقادهم فيه الحد , حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون إليها , وذخيرتهم في الآخرة التي يعولون عليها) (2) , كما كان شديداً في أمر الله , لا تأخذه في الله لومة لائم وكان يواصل الأيام الكثيرة على ما اشتهر عنه , حتى ان بعض الناس كان يعتقد انه لا يأكل شيئاً قط . فلما بلغه ذلك اخذ شيئاً , واكله بحضرة الناس)

(3) و (هو اوجد اركان هذه الطريقة - أي الطريقة الصوفية - و اعلى العلماء بها وكان الشيخ عبد القادر رضي الله عنه ينوه بذكره و يثني عليه و شهد له بالسلطنة - أي السلطنة على الأولياء - وقال : لو كانت النبوة تتال با لمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر , بالغ في المجاهدة في بدايته حتى اعجز المشايخ بعده) . (4)

تبعاً لهذه المقتبسات من كتب السير و التراجم و استناداً الى مؤلفات الشيخ عدي التي تركها لنا (5) ليس ثمة ما يشير الى أنه نأى بنفسه عن الدين الاسلامي كما اشار الكاتب في مقاله , ولم يذكر مؤرخو الشيخ دعوته الى تأسيس دين جديد او تجاوزه لحجاب العقيدة الاسلامية , و الا لما اتى عليه الفقيه السلفي ابن تيمية (1262 _ 1327) في الرسالة الموجهة الى اتباعه والتي وصفهم فيها بالصلاح , مشيراً بنفس الوقت الى وجود فئة من أتباعه فيهم غلو عظيم و يبلغ بهم غليظ الكفر (6) , و معروف عن الفقيه ابن تيمية معارضته الشديدة للصوفية و المتصوفين , حتى أن الإمام الغزالي لم ينج من انتقاداته لميل الأخير للتصوف , كما كفر ابن تيمية الشيخ محي الدين ابن عربي على بعض آرائه الصوفية (7) .

فتصوف الشيخ عدي بن مسافر لم يأخذ منحىً فلسفياً على غرار تصوف الحلاج و السهروردي ولم يصدر منه هرطقة دينية تستوجب حنق الأئمة المسلمين و غضبهم ليضطر للإرتحال إلى كردستان حسب اجتهاد الكاتب آغري , والأرجح أنه توجه إلى هكاري في كردستان ليلتحق بدوي قرابته من الأمويين الذين فروا إلى هكاري بعد زوال دولتهم و التنكيل بهم على يد العباسيين .

يذكر صاحب كتاب " صبح الأعشى " عند الحديث عن الطوائف و القبائل الكردية أن (جولمرك (هكاري) وهو مقام طائفة تسمى الجولمركية , وهم قوم نسبوا إلى مكانهم ذلك فعرفوا به و يقال : إنهم طائفة من العرب من بني أمية اعتصموا بهذه الجبال عند غلبة بني العباس عليهم , وأقاموا بها بين الأكراد فانخرطوا في سلكهم) (8) , ومن رجال الدين الأمويين الذين عاشوا في هكاري قبل الشيخ عدي بن مسافر شيخ الإسلام أبو الحسن علي بن أحمد الذي ينتهي نسبه

إلى بني أمية وقد ابتنى أربطة و مواضع في هكاري بأوي إليها الفقراء و الصالحون و كانت ولادته سنة 1018 م ومات بالهكارية سنة 1093 م (9) , ولاننسى أن آخر خلفاء الدولة الأموية مروان بن محمد كان ابن أمة كردية كما تذكر المصادر التاريخية .

بعد وفاة الشيخ عدي بدأ الغلو في الطريقة العدوية (اليزيدية) يتصاعد شيئاً فشيئاً إلى أن وصل إلى أوجه زمن الشيخ حسن بن عدي الملقب بتاج العارفين و (في الأكراد طوائف إلى الآن يعتقدون أن الشيخ حسناً لا بد أن يرجع , وقد تجمعت عندهم زكوات وندور ينتظرون خروجه , و ما يعتقدون أنه قتل) 10 .

لقد لعب مقتل الشيخ حسن على يد المتشيع بدر الدين لؤلؤ دوراً كبيراً في ابعاد اليزيدية عن جادة الإسلام ناهيك عن قيام الأخير بنش قبر الشيخ عدي و حرق عظامه (11) مما خلق ردة فعل قوية عند اليزيديين وقد يفسر هذا الصراع الطائفي تمسك اليزيدية باسم يزيد الأموي قاتل الحسين .

ومن هنا يمكن القول إن الصراعات السياسية و الدينية أدت إلى توسيع هوة الخلاف بين الفرق الإسلامية , و جاءت مجازر الدولة العثمانية

المرتكية باسم الإسلام بحق اليزيدية إيداناً لليزيدية لتعلن نفسها ديانة مستقلة لاتمت إلى الإسلام بصلة كرد فعل على المآسي والويلات التي ألمت بها.

حول تسمية اليزيدية :

كثرت الإجهادات و التأويلات حول أصل تسمية اليزيدية بهذا الاسم (فبين اليزيدية أنفسهم من يعتقد دعوا بهذا الاسم نسبة الى الخليفة الأموي يزيد بن معاوية الذي أحيا دينهم القديم وأطلق عليه اسمه) 12 , وفريق آخر من الباحثين يرى أن الاسم مأخوذ من اسم مدينة يزد الإيرانية أو مشتق من كلمة يزدان , بمعنى الله , ومرد هذا الاختلاف حول أصل تسمية اليزيديين نابع من غياب اسم اليزيدية في المصادر التاريخية حتى أواخر القرن الخامس الهجري (أواخر الحادي عشر الميلادي) . فعلى سبيل المثال لم يرد اسم اليزيدية في كتاب (الملل والنحل) و (الفرق بين الفرق) و (الفصل في الملل والأهواء والنحل) . فهذه الكتب لم تكتف بسرد تاريخ الفرق والجماعات الدينية الإسلامية فحسب , بل تطرقت الى أديان الهند واليونان وبلاد فارس , ومن العبث واللاموضوعية القفز فوق هذه المصادر والبحث عن اسم اليزيدية في ألواح سومر و أكاد .

يقول السمعاني [توفي عام 1166م] في كتابه الأنساب : (و جماعة كثيرة لقبتهم بالعراق في جبال حلوان و نواحيها من اليزيدية , و هم يتزهون في القرى التي في تلك الجبال و يأكلون الحلال (13) , وقلما يخالطون الناس و يعتقدون في يزيد بن معاوية الإمامة و كونه على حق . ورأيت جماعة منهم في جامع" المرج " عند منصرفي من العراق يوم الجمعة و كانوا قد حضروا الجامع للصلاة . و سمعت أن الأديب الحسن بن بندار البروجردي - وكان فاضلاً مسافراً - نزل عليهم مجتازاً (14), و دخل مسجداً لهم , فسأله واحد من اليزيدية : ما قولك في يزيد ؟ فقال : أيش أقول لمن ذكره الله تعالى في كتابه في عدة مواضع حيث قال : [يزيد في الخلق ما يشاء] و قال : [ويزيد الله الذين اهتدوا هدى] قال : فأكرموني وقدموا إلي الطعام الكثير (15) .

لقد نفى (16) الباحث صديق الدموجي في معرض رده على الباحث عباس العزاوي أن تكون الجماعة التي لقبها السمعاني هي نفس اليزيدية المنتمين إلى الشيخ عدي بن مسافر , ومهما يكن فإن نص السمعاني له دلالة كبيرة من حيث ظهور اسم اليزيدية كتسمية لفرقة سياسية دينية بالإضافة إلى ورود اسم مدينة سنجان في مخطوطة "الأنساب" التي اعتمدها عباس العزاوي مما يعزز رأيه - أي رأي العزاوي - في إيجاد صلة بين اليزيدية التي لقبها السمعاني ويزيدية الشيخ عدي بن مسافر ولا يمكن الجزم بأن اليزيدية ظهرت بعد عدي بن مسافر كما ذهب الكاتب نزار أغري.

طاووس الملائكة في المأثور الإسلامي :

ذكر الكاتب نزار أغري في مقاله أن الشيخ عدي بن مسافر ربما يكون أول من أطلق تسمية طاووس الملائكة على إبليس و رغم صعوبة تحديد الفترة الزمنية التي ظهرت فيها التسمية فإن لها حضورها في الموروث الإسلامي و إذا ثبت نصاً ما جاء في كتاب صديق الدموجي عن اليزيدية بأن كتب السير و التفاسير و التاريخ تدل على أن إبليس قبل أن يطرد من الجنة كان يسمى طاووس الملائكة (17) فإنه يدل على وجود تسمية طاووس الملائكة كصفة لإبليس في النصوص الإسلامية هذا من جهة ومن جهة أخرى يدل على أسبقية ظهور اسم طاووس الملائكة قبل الشيخ عدي بن مسافر , لكن الباحث الدموجي لم يبين في أي كتاب من الكتب ورد اسم طاووس الملائكة كصفة لإبليس.

وفي (مولد ابن حجر) يوصف الملاك جبريل بطاووس الملائكة كما وصف أيضاً في كتاب (عجائب المخلوقات و الحيوانات و غرائب الموجودات) (18) بهذا الوصف .تدل هذه الإشارات بجلاء أن تسمية طاووس الملائكة حاضرة في المأثور الإسلامي وبدلالات مقاربة للمفهوم اليزيدي و إذا كان بعض الباحثين يحاولون إيجاد روابط ميتولوجية بين (زيوس) وبين طاووس أو بين طاووس و (تموز) فلا يتعارض هذا من حيث المبدأ مع البحث العلمي شريطة عدم تجاوز الثقافة الإسلامية الأقرب حضارياً و جغرافياً إلى اليزيدية و اللافت في بعض دراسات المتقنين الكرد عن اليزيدية

سعيهم الحثيث ابعاد اليزيدية عن الإسلام محاولة منهم اثبات استقلاليتها وليس هذا فحسب فبمجرد الحديث عن صلة اليزيدية بالإسلام تثور ثائرة بعض الكتاب ويتهم بالتحامل و الجهل بحقائق التاريخ كل من تحدث بذلك (19). هذه اللغة المتشجبة والانفعالية تعكس الذهنية الدينية الضيقة , وهي لغة أقرب الى لغة رجال الدين منها إلى لغة البحث , فهل صلة الإسلام (بالمسيحية و اليهودية) تنفي استقلاليتها؟! . فالمنظومة الدينية لا تتأسس على اللا أصالة والعراقة بقدر تمأسسها على دورها الحضاري والثقافي ومن هذه الزاوية يمكن تقييم الأديان والمذاهب . لقد طرح الكاتب نزار أغري تساؤلات واستفسارات قد تكون الأولى من نوعها في حقل الدراسات اليزيدية , من قبيل: كيف نفسر عدم وجود اليزيدية بين السوران والهورامان والور ؟ لماذا ظهرت اليزيدية على تخوم كردستان وليس في عمقها ؟ ويمكن إضافة تساؤل آخر لماذا لم تظهر شخصيات كردية يزيديية في التاريخ الإسلامي تدافع عن التراث اليزيدي كما فعل شعراء الفرس وأدباؤهم المنحدرون من أصول مجوسية ك بشار بن برد و أبي نواس و عبدالله بن المقفع الخ

لقد حرر الكاتب نزار أغري بمقاله هذا اليزيدية من أوهام التاريخ ووضعهما في حضن التاريخ الإسلامي وهو بذلك ينضم الى الفريق القائل بإسلامية اليزيدية .

المصادر والمراجع :

- 1- فتاوى ابن تيمية ج3 ص 377. جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد النجدي الحنبلي - مطبعة الحكومة بمكة المكرمة 1389هـ
- 2- ابن خلكان - وفيات الأعيان ج3 ص 254 تحقيق د . احسان عباس . دار صادر - بيروت
- 3- شمس الدين الذهبي تاريخ الاسلام ص 230 233 تحقيق د . عمر عبدالسلام دار الكتاب العربي ط 2 1998م
- 4- عبدالوهاب الشعراني . لوائح الأنوار في طبقات الأخيار ج1 . أنظر ترجمة عدي بن مسافر
- 5- اكتفيت بهذا القدر من الشواهد خوفا من الاسترسال والاطالة ولم أعتز في كتب التراجم التي أطلعت عليها ما يخالف هذه النصوص وبالنسبة لمؤلفات الشيخ عدي والتي لم يوفق الكاتب نزار أغري في ضبط أسمائها بالشكل الصحيح لاعتماده على كتب أجنبية على الأرجح , فهي على الشكل التالي : 1- رسالة في آداب النفس 2- وصاياه للخليفة 3- وصاياه لمريده (قائد) 4- اعتقاد أهل السنة والجماعة طبع هذا الكتاب في بغداد عام 1975 م تحقيق محمد علي الياس العدواني و ابراهيم العطية .
- 6- فتاوى ابن تيمية ج 11 ص 102
- 7- هادي العلوي مدارات صوفية ص 72 دار المدى ط 1997
- 8- القلقشندي صبح الأعشى ج 4 ص 376 377 - وزارة الثقافة والارشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر
- 9- السمعاني - كتاب الأنساب ج5 ص 645 تقديم وتعليق عبدالله عمر البارودي - مركز الخدمات والأبحاث الثقافية - دار الجنان ط 1988 م
- 10- الصفدي - الوافي بالوفيات ج12 أنظر ترجمة (الحسن بن عدي شيخ الأكراد) . كان للشيخ حسن عدة تصانيف منها (محك الايمان) و (الجلوة لارباب الخلوة) و (هداية الأصحاب) وله ديوان شعر فيه شيء من الاحاد!!
- 11- صديق الدمولوجي اليزيدية ص 86 مطبعة الاتحاد الموصل 1949 م
- 12- أنظر مقدمة الدكتور قسطنطين زريق لكتاب اليزيدية قديما وحديثا - المطبعة الأمريكية , بيروت , 1934 م
- 13- في المخطوطة التي أعتمدها الباحث عباس العزاوي (يأكلون الحال) أنظر تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم ص 9 مطبعة بغداد - 1935م
- 14- في كتاب العزاوي (نزل عليهم بسنجار مجتازا) أنظر ص 11
- 15- الأنساب ج 5 ص 693
- 16- صديق الدمولوجي - اليزيدية ص 344 - 345
- 17- نفس المصدر ص 9
- 18- مولد ابن حجر ص 31 تأليف أحمد بن حجر الهيتمي المتوفى سنة 1566 م - عجائب المخلوقات ص 260 تأليف زكريا بن محمد القرويني المتوفى سنة 1283 م . تم نشر هذا الكتاب كملحق لكتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري - دار احياء التراث العربي بيروت
- 19- هوشنك بروكا - دراسات في ميثلوجيا الديانة اليزيدية ص 9 اصدار خاص ألمانيا 1995 م .